ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ(١) رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ونفهم من التعبير فى هذه الآية أن المكانَ لا يصلح للزرع ؛ ذلك أنه أرض صَخْرية ؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقَوْل إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لا أملَ فى زراعتها بمجهود إنسانى ، وليس أمام تواجد الرزق فى هذا المكان إلا العطاء الربانى . ولم يكُنْ اختيار المكان نتيجة بَحْثٍ من إبراهيم عليه السلام ؛ ولكن بتكليف إلهىّ ، فسبحانه هو الذى أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام.

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٩/٥) : « قوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم أى : يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال ، وقيل : محرم على الجبابرة ، وأن تُنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقه » .

فهذا يعنى حيثية الرِّضـا بالتكليف ، ومادام هذا أمراً تكليفياً يجب أنْ يُنفَّذ بعشق ؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين ؛ ثواب حُبِّ التكليف ؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المـثل فى حكاية الرجل الذى قـابله الأصمـعى[1] عند البيت الحرام ، وكـان يقول : « اللهم ، إنِّى قـد عصيـتُك ، ولكنى أحب مَنْ يطيعك ، فـاجعلها قُرْبة لـى » . فقال الأصمـعى ما يعنى أن الله لا بُدَّ أن يغـفر لهـذا الرجل لحُسْن مـسألتـه ، ذلك أنه رجل قد فـرح بحب التكليف ولو لم يَقُمْ به هو ؛ بل يقوم به غيره وهذا يُسعده .

فالـتكليف عندما يقـوم به أىُّ إنسان ؛ فـذلك أمر فى صـالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلى ونقرأ الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة]

أى : أن كُلاً منّا يحشر نفســه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يتقبَّل من واحد فندخل كلنا فى الصفقة ؛ ولذلك أقول لِمَنْ يرتكب معصية : عليك ألاّ تغضب ، لأن هناك مَنْ يطيع الله ؛ بل افـرح به ؛ لأن فرحَك بالمطيـع لله ؛ دليلٌ على أنك تحبُّ الـتكليف ، رغم أنك لا تقـدر على نفسك ، وفى هذا الحُبِّ كرامة لك .

وقـد قال إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ عن الوادى الذى أمـره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذى زَرْع ، وقد

---

(١) هو : عبدالملك بن قـريب الباهلى ، أبو سعيد ، ولد بالبـصرة (١٢٢ هـ) ، راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغـة والشعر والبلدان ، كان كثير التطواف فى الـبوادى . توفى بالبصرة (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/١٦٢] .

جاء هو إلى هذا المكان لِيُنفِّذ تكليف الحق سبحانه له ؛ لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار فى هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إذنْ لن يضيعنا »[1] .

ويُقدِّم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة فى هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن مجىء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوةَ سياحة ؛ ولكن إقامة عبادة ؛ فما دام المكان قد أُقيم فيه بيت لله باختيار الله ؛ فلابُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أَخْذ الأمر بالوجود فى مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مُقوِّماتها شىء ؛ ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك ؛ فلابُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة ؛ والمُقوِّم الأول للحياة هو المَأْكل والمَشْرب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

والأفئدة جمع « فؤاد » ، وتُطلَق على الطائفة ؛ وعلاقة الفؤاد

---

(١) وذلك أن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة ، التى لم يكن فيها أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم تركهما وذهب ، فقالت هاجر : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يُضيِّعنا . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٧) .

بالحجيج علاقةٌ قوية ؛ لأن الهوى فى الحجيج هوى قلوب ؛ لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظَى بأداء تلك الفريضة[1] .

وكلمة « هوى » مُكوّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معَانٍ متعددة ، فلك أنْ تقولَ « هَوَى » أو تقول « هَوِى » ، فإنْ قلت « هَوَى يهوي » من السقوط من مكان عالٍ ؛ دون إرادة منه فى السقوط ؛ وكأنه مقهورٌ عليه ، وإنْ قُلْت : « هَوِى يهوىَ » فهذا يعنى أحبّ ، وهو نتيجة لمِيْل القلوب ، لا مَيْل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فهم فى مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبَّل الحق سبحانه دعاءَ إبراهيم عليه السلام ؛ ووجدنا التطبيق العملى فى قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد : لو قال : « أفئدة الناس » لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧١١) ، والسيوطى فى « الدر المنثور » (٥/٤٨) .

(٢) جبا يجبى المال والخراج جباية : جمعه . قال تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكي وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات. وكلمة « يُجْبى » تدل على أن الأمرَ فى هذا الرزق القادم من الله كأنه جِبَاية ؛ وأمْر مفروض ، فتكون فى الطائف مثلاً وفيها من الرمان والعنب وتحاول أنْ تشتريه ؛ فتجد مَنْ يقول لك : إن هذا يخصُّ مكة المكرمة ؛ إنْ أردتَ منه فاذهب إلى هناك .

وتجد فى كلمة :

﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ما يثير العجب والدهشة ؛ فأنت فى مكة تجد بالفعل ثمرات كل شىء من زراعة أو صناعة ؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمةً من كل البلاد ؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدِّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفى عصرنا الحالى نجد ثمرات النموِّ الحضارى والعقول المُفكِّرة وهى معروضة فى سوق مكة أو جدة ؛ بل تجد ثمرات التخطيط والإمكانات وقد تمَّتْ ترجمتُها إلى واقع ملموس فى كل أوْجُه الحياة هناك .

وقديماً عندما كُنّا نؤدى فريضة الحج ؛ كُنّا نأخذ معنا إبرة الخيط ؛ ومِلْح الطعام ؛ ومن بعد أن توحَّدتْ غالبية أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ؛ صِرْنا نذهب إلى هناك ، ونأتى بكماليات الحياة .

ولنلحظ قَوْل الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فكلمة « من » تُوضِّح أن مَنْ تهـوي قلوبهم إلى المكان هم قطعةٌ من أفئـدة الناس ، وقال بعضٌ من العـارفين بالله(١) : لو أن النصَّ قد جاء « فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم » لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً فى الحجيج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فاقتصر الحجيج على المسلمين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك مُسْتكملاً ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ﴾

وبعد أن اطمـأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن لهذا البلد أمنـاً عاماً وأمناً خاصاً ، واطـمأن على مُقوِّمات الحـياة ؛ وأن كل شىء من عند الله ، بعد كل ذلك عـاودته المسألة التـى كانت تشغله ، وهى مـسألة تَرْكه لهاجر وإسماعيل فى هذا المكان .

وبعض المُفسِّرين قالوا : إن الضمير بالجمع فى قوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ .. (٣٨) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) نقل السيـوطى فى الدر المنثور (٥/٤٨) عن السـدى معزواً لابن أبى حـاتم أنه قال فى تفسير هذه الآية : « خذ بقلوب الناس إليهم ، فـإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد ، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه مُعلّق بحب الكعبة » .

مقصود به ما يُكنّه من الحُبِّ لهاجر وإسماعيل ، وما يُعلنه من الجفاء الذى يُظهره لهما أمام سارة ، وكأن المعانى النفسية عاودتْه لحظةَ أنْ بدأ فى سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل .

ونقول : لقد كانت هاجر هى الأخرى تعيش موقفاً صَعْباً ؛ ذلك أنها قد وُجِدت فى مكان ليس فيه زَرْع ولا ماء ، وكأنها كتمتْ نوازعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرتْ .

ولحظة أنْ جاء إبراهيم ليُودّعها ؛ قالت له : أين تتركنا ؟ وهل تتركنا منْ رأيك أم من أمر ربك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : بل هو من أمر الله . فقالت : إذن لن يضيعنا .

وتأكدت هاجر من أن ما قالتْه قد تحقَّق ؛ ولم يُضيّعهما الله ، وحين يعطش وحيدها تجرى بين الصفا والمروة بَحْثاً عن مياه ؛ ولكنها ترى تفجُّر الماء تحت قَدَمَيْ ابنها فى المكان الذى تركته فيه ؛ ويبدأ بئر زمزم[1] فى عطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التى لا تنضب[2] .

وهكذا يتحقق قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى أن الله يعلم ما نُسرّ وما نُعلن ؛ ذلك أن كل مُعْلَن لا يكون إلا بعد أن كان مَخْفياً ، وعلى الرغم منَ أن الله غَيْبٌ إلا أن صلَته لا تقتصر على الغيب ؛ بل تشمل العالم الظاهر والباطن ؛ وكل مظروف فى السماء أو الأرض معلومٌ لله ؛ لأن ما تعتبره أنت غيباً فى ذهنك هو معلوم لله من قبل أن يتحركَ ذهنك إليه .

---

(١) يُقال : ماءٌ زمزمٌ : كثير بين الملح والعَذْب . [لسان العرب ـ مادة : زمزم] .
(٢) نضب الماء : ذهب فى الأرض وبَعُد . ونضب البئر : نزح ماؤه ونشف . [لسان العرب . مادة : نضب] .

ولذلك يقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فإذا كان السِّر هو ما أسررْتَ به لغيرك ؛ وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألاّ يقوله ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت فى نفسك ؛ فالله هو العَالِم به فى الحالتين .

ويقول القرآن :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا .. (٣) ﴾ [التحريم]

أى : أن السِّرَّ كان عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعضٍ من أزواجه . والأخْفَى هو ما قبل أنْ تبوحَ بالسرِّ ؛ وكتمته ولم تَبُحْ به .

وسبحانه يعلم هذا السر وما تخفيه . أى : السر الذى لم تَقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكونَ سِراً .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ضراعةً وحَمْداً له سبحانه :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ[1] إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) ﴾

والوَهْب هو عطاء من مُعْطٍ بلا مقابل منك . وكل الذرية هِبَة ،

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ولد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة . [تفسير القرطبى ٣٧١٣/٥] .

لو لم تكُنْ هبة لكانت رتيبة بين الزوجين ؛ وأينما يوجد زوجان توجد . ولذلك قال الله :

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

والدليل على أن الذرية هبَة هو ما شاءه سبحانه مع زكريا عليه السلام ؛ وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بغلام يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغَ من الكِبَر عتياً[1] وزوجه عاقر ؛ وقد تعجَّب زكريا من ذلك ؛ لأنه أنجب بقوة ، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

وهذا يعنى ألاَّ يدخل زكريا فى الأسباب والمُسبِّبات والقوانين .

وقد سمَّى الحق سبحانه الذرية هبةً ؛ لذلك يجب أن نشكرَ الله على هبته ؛ فلا تُرد هبته ، إنْ وهبَ لك إناثاً فعلى العين والرأس ؛ لأن الذى يقبل هبة الله فى إنجاب الإناث برضاً يرزقه الله بشباب يتزوجون البنات ؛ ويصبحون أطوعَ له من أبنائه ، رغم أنه لم يَشْقَ فى تربيتهم .

وكل منّا يرى ذلك فى مُحيطه ، فمَنْ أنجب الأولاد الذكور يظل يرقب : هل يتزوج ابنه بمَنْ تخطفه وتجعله أطوعَ لغيره منه .

وإنْ وهب لك الذكور فعلى العين والرأس أيضاً ، وعليك أنْ تطلبَ

---

(١) عتا عتواً وعتياً : أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته . قال تعالى عن زكريا : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) ﴾ [مريم] . [القاموس القويم ٢/٦] .

من الله أن يكون ابنك من الذرية الصالحة ، وإنْ وهبكَ ذُكْراناً وإناثاً فلكَ أن تشكره ، وتطلب من الله أن يُعينك على تربيتهم .

وعلى مَنْ جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكرَ ربه ؛ لأن العُقْم أيضاً هبةٌ منه سبحانه ؛ فقد رأينا الابن الذى يقتل أباه وأمه ، ورأينا البنت التى تجحد أباها وأمها .

وإنْ قَبِل العاقر هبةَ الله فى ذلك ؛ وأعلن لنفسه ولمَنْ حوله هذا القبول ؛ فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبناء لأب ، ويجعل كل مَنْ يراه من شباب يقول له : « أتريد شيئاً يا عم فلان ؟ » ويخدمه الجميع بمحبة صافية .

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ قد قال للحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

والشكر على الهبة ـ كما عرفنا ـ يُشكِّل عطاءَ الذرية فى الشباب ، أو فى الشيخوخة .

وأهل التفسير يقولون فى :

﴿ عَلَى الْكِبَرِ ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

أنه يشكر الحق سبحانه على وَهْبه إسماعيل وإسحق مع أنه كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه (على) وهى من ثلاثة حروف ؛ بدلاً من « مع » ولم يَقُل : « الحمد لله الذى وهب لى مع الكِبَر إسماعيل وإسحاق » .

وأقول : إن (على) تفيد الاستعلاء ، فالكِبَر ضَعْف ، ولكن إرادة

الله أقوى من الضعف ؛ ولو قال « مع الكبر » فالمعيّة هنا لا تقتضى قوة ، أما قوله :

﴿ وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

فيجعل قدرة الله فى العطاء فوق الشيخوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك ؛ فهو يشكر الله على استجابته لما قاله من قبل :

﴿ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أنه دعا أن تكونَ له ذرية .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم :

﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) ﴾

وكأن إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه قضية تخصُّ منهج الله ، وهو يسأل الله أنْ يقبلَ ، ذلك أن الطلبات الأخرى قد طلبها ببشريته ؛ وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً ؛ ولكن الطلب بأن يجعله مُقيماً للصلاة هو وذريته هو طَلَبٌ بالخير .

ويتتابع الدعاء فى قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾

ونعلم أن طلب الغُفْران من المعصوم إيذانٌ بطلاقة قدرة الله فى الكون ، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول - أىّ رسول - لا يُعفى الرسول المختار من الحذَر وطلب المغفرة ، وها هو سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة »[1] .

وطلب المغفرة من الله إن لم يكُنْ لذنب - كما فى حال الرُّسل المعصومين - فهو من الأدب مع الله ؛ لأن الخالق - سبحانه وتعالى - يستحق منّا فوق ما كلَّفنا به ، فإذا لم نقدر على المندوبات وعلى التطوّعات ؛ فَلْندعُ الحق سبحانه أنْ يغفرَ لنا .

ومنّا مَنْ لا يقدر على الفرائض ؛ فليدْعُ الله أنْ يغفرَ له ؛ ولذلك يُقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين»[2] .

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٣٠٢) ، والحاكم فى مستدركه (٢/٤٥٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٩٤) من حديث حذيفة رضى الله عنه أنه قال : كان فى لسانى ذرب على أهلى ولم يكن يعدوهم إلى غيرهم فسألت النبى ﷺ فقال : « أين أنت من الاستغفار ، إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

(٢) الأبرار والمقربون كلاهما من أهل الجنة ، ولكن الأبرار أقل منزلة من المقربين ، وقد تحدث الله عن الصنفين فقال عن المقربين : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) ﴾ [الواقعة] الآيات . أما الأبرار فقد قال عنهم : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة] الآيات . فلعظم منزلة المقربين قيل : إن الحسنات التى يعملها الأبرار والتى استحقوا بها النعيم فى الجنة هى سيئات فى جانب ما يعمله المقربون .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) ﴾ [الفتح]

ولذلك أقول دائماً : إن الحق - جَلَّ جلالُ ذاته - يستحق أن يُعبَد بفوق ما كلَّف به ؛ فإذا اقتصرنا على أداء ما كلَّف به سبحانه ؛ فكأننا لم نُؤدِّ كامل الشُّكْر ؛ وما بالنا إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خَلْقه اصطفاءً ؛ أفلا يزيدنه شُكْراً وطلباً للمغفرة ؟

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ[1] وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾ [إبراهيم]

والإنسان كما نعلم له وجود أصليّ من آدم عليه السلام ؛ وله وجود مباشر من أبويْه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديْه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو : أن الأُسْوة كانت منهما ؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة ؛ لأنهم كانوا صُحْبة له وقُدْوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكأن إبراهيم - عليه السلام - صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته ؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمَنْ آمن ؛ ويرجو الحقَّ سبحانه أنْ يتقبلها .

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٥/٣٧١٤) قراءتين أخريين لهذه الكلمة :
- (لِوَالِدِي) يعني أباه . وهي قراءة سعيد بن جبير . وذلك قبل أن يثبت عنده أنه عدو لله .
- (لِوَلَدَيَّ) يعني ابنيه . وهي قراءة إبراهيم النخعي ، ويحيى بن يعمر . ولذلك قيل : إنه أراد ولديه : إسماعيل وإسحاق .